فدوى طوقان
شاعرة المقاومة الفلسطينية (*)

Abstract:

Fadwa Tuqan is one of the senior Palestinian poets. She expressed and reflected the Palestinian cause, its impacts on the Palestinian people, and the dimensions of life in all its forms what is happening on the occupied land and what is every person in Palestine is suffering from under the yoke of occupation through the oppression and humiliation.

Fadwa Tuqan herself has been suffered a lot since the Jewish occupation of Arab land of Palestine, and faced all the aggression bravely.

Fadwa Tuqan focused in her poems on the inhuman practices by the Israeli occupation against unarmed Palestinian people, and under Israeli occupation in her poems, and described the truth of reflected the imprisonment, torture, demolition of houses by bulldozers, deportation and other actions of the Israelis expressing the feelings of all Arabs towards it, and this paper is dealing with all of these topics.

---

* د . تبسم منهاس - قسم دائرة المعارف الإسلامية - جامعة البنجاب .

حياتها :

هي فدوى عبد الفتاح آغا طوقان ، فلسطينية تحمل الجنسية الأردنية ، والدها عبد الفتاح آغا طوقان ووالدتها فوزية أمين بك عسقلان ، ولدت في نابلس عام ١٩١٧م لأسرة عريقة ذات نفوذ اقتصادي وسياسي ، أسرة مثقفة وغنية لها حظوة كبيرة في المجتمع الفلسطيني ومكانة محترمة لدى القيادات السياسية والعسكرية آنذاك . وكانت هذه الأسرة الأرستقراطية تعتبر مشاركة المرأة في الحياة العامة أمراً غير مستحب، وأصبح هذا من بين الأسباب التي أدت إلى منع فدوى طوقان من استكمال تعليمها بعد أن أتمت تعليمها الابتدائي في مدارس نابلس .

كانت أسرة فدوى طوقان تتكون من عشرة من الإخوة والأخوات بالإضافة إلى الوالدين ، وكان ترتيبها السابع بين إخوتها ، ولقد حاولت والدتها مراراً أن تجهض نفسها قبل ولادتها بحجة أن الحمل والولادة والرضاعة قد أجهدها وتريد أن تستريح من هذا العناء (١) ، لكن القدر أبى إلا أن تولد ، بل وولد بعدها ثلاثة .

التحقت فدوى طوقان بإحدى المدارس بمدينة نابلس الفلسطينية ، وتعلقت كثيراً بمدرّستها "زهرة" ، وأحبتها لما كانت تبديه من اهتمام بها ، ولكن المرض أصاب المعلمة ، وانقطعت عن المدرسة مما أثر في نفس فدوى كثيراً (٢) .

وواصلت فدوى تعليمها ، ولكن الأمر لم يستمر طويلاً ، فقد أعجب بها صبي ظل يتابعها لفترة في طريقها ، ولما عرف أهلها بالأمر أخرجوها من المدرسة وفرضوا عليها الإقامة الجبرية بين جدران البيت لا تفارقه (٣) . ولم يعلم أبو فدوى بأمر إخراجها من المدرسة فور حدوثه ، فقد كان الجميع يخافه ، ولما علم بأنها لم تعد تذهب إلى المدرسة لم يزد على أن قال " حسناً " (٤) .

وسيطرت حالة من اليأس على فدوى طوقان حتى فكرت في أن تتخلص من حياتها لتشعر أهلها بتأنيب الضمير على معاملتهم القاسية لها ، ولكنها لم تستطع تنفيذ الفكرة

لخوفها من الألم الذي يسببه الانتحار من جانب ، ومن جانب آخر رحمة بوالدها ، ومن جانب ثالث أنها لم تجد من يأتيها بالسم لتقتل نفسها به (٥) .

ولكن فدوى طوقان صاحبة العزيمة القوية والنفس المحبة للحياة استطاعت التغلب على يأسها وأحزانها ، وعمدت إلى تثقيف نفسها بنفسها بفضل أخيها الشاعر الكبير إبراهيم طوقان الذي شجعها وأحضر لها الكتب وفتح لها طريق الشعر لما أحس بميلها إليه (٦) ، ولكن اتجاه فدوى إلى الشعر وتشجيع أخيها لها عليه لم يعجب والدها الذي كان يراها لا تصلح لشيء ، مما زاد من اتساع الهوة بينها وبين والدها (٧) . لكن فدوى واصلت طريقها بعزم وهمة ، وحصلت على دورات في اللغة الإنجليزية ودرست الأدب الإنجليزي وأصبحت عضواً مؤثراً على الساحة الأدبية والسياسية .

وفي فترة شبابها التقت الشاعرة فدوى طوقان بشاعر مصري يدعى "إبراهيم نجا" قدم إلى فلسطين صحفياً أثناء حرب ١٩٤٨م ، وأحبته فدوى لما رأت من اهتمامه بها وإحساسه بمعاناتها ، ورغبت في الاقتران به ، ولكن عائلتها رفضت هذا الزواج حفاظا على تقاليدهم وعاداتهم التي لا تسمح للفتاة بالزواج من شخص غريب خارج العائلة ، وبقيت الشاعرة أسيرة العادات والتقاليد الظالمة فلم تتزوج طيلة حياتها التي بلغت السادسة والثمانين عاماً .

ولفدوى طوقان علاقة أدبية خاصة مع مصر ، فقد نشرت أولى قصائدها في مجلة "الرسالة" المصرية التي رأس تحريرها أحمد حسن الزيّات ، كما شهدت مصر ميلاد ديوانها الأول " وحدي مع الأيام" عام ١٩٥٢م. أما كتابها "رحلة جبلية، رحلة صعبة " فقد تمّ نشره على حلقات في مجلة "الدوحة" بتشجيع من ناقدٍ كبير مصري أيضا هو "رجاء النقاش" رئيس تحرير الدوحة وقتها. هذا بالإضافة إلى تشجيع الناقد المصري أنور المعداوي لها . لقد كانت فدوى طوقان صاحبة شخصية تتسم بما يمكن تلخيصه فيما يلي :

١ – همتها وعزيمتها القوية ، فواصلت تثقيف بنفسها بنفسها .

٢ – وضوح الهدف في أن تكون شاعرة وإصرارها على ذلك .

٣ – شجاعتها الأدبية وهو ما تجلى في كتابتها لسيرة حياتها "رحلة صعبة" و"الرحلة الأصعب" بكل ما تضم من اعترافات وحقائق .

عاشت فدوى طوقان حياة يملؤها الحرمان والافتقاد إلى الحب ، وهو ما انعكس في شعرها واضحاً جلياً ، ومن هذا الحرمان :

١ – حرمانها من الحب كقيمة حيث لم تكن طفلاً مرغوبا فيه .

٢ – حرمانها من استكمال تعليمها .

٣ – حرمانها من معلمتها "زهرة" بعد أن أصابها المرض .

٤ – حرمانها من أخيها ومعلمها إبراهيم طوقان (١٩٠٥م – ١٩٤١م) الذي مات في ريعان شبابه .

٥ – حرمانها من الأمومة والحياة المستقرة كامرأة متزوجة .

٦ – حرمان من الوطن فلسطين .

هذا وقد توفيت فدوى طوقان يوم السبت الثالث عشر من ديسمبر ٢٠٠٣م في مدينة نابلس الفلسطينية عن عمر يناهز ٨٦، بعد ٢٠ يوما قضتها في العناية المركزة في المستشفى التخصصي في المدينة. وحسب التقرير الطبي عن سبب الوفاة فإن الشاعرة الفلسطينية توفيت بسبب هبوط في القلب ، وكتبت على قبرها هذه الأبيات من إحدى قصائدها :

كفاني أموت عليها و أدفن فيها
وتحت ثراها أذوب و أفنى
وأبعث عشباً على أرضها
وأبعث زهرة
تعبث بها كف طفل نمته بلادي
كفاني أظل بحضن بلادي
تراباً وعشباً وزهرة ...

*** ***

إبداعات فدوى طوقان الشعرية والنثرية :

صدر لفدوى طوقان الدواوين الشعرية التالية :

١ – وحدي مع الأيام ، وصدر عام ١٩٥٢م .

٢ – وجدتها ، وصدر عام ١٩٥٧م .

٣ – أعطنا حباً ، وصدر عام ١٩٦٠م .

٤ – أمام الباب المغلق ، وصدر عام ١٩٦٧م .

٥ – الليل والفرسان ، وصدر عام ١٩٦٩م .

٦ – على قمة الدنيا وحيداً ، وصدر عام ١٩٧٣م .

٧ – تموز والشيء الآخر ، وصدر عام ١٩٨٩م .

٨ – اللحن الأخير ، وصدر عام ٢٠٠٠م .

ولها إبداعات نثرية هي :

١ – أخي إبراهيم ، وصدر عام ١٩٤٦م .

٢ – رحلة صعبة – رحلة جبلية ، وصدر عام ١٩٨٥م ، وهو الجزء الأول من سيرتها الذاتية .

٣ – الرحلة الأصعب ، وهو الجزء الثاني من سيرتها الذاتية ، وصدر عام ١٩٩٣م في العاصمة الأردنية .

جوائز وأوسمة :

حصلت فدوى طوقان على العديد من الجوائز والأوسمة الدولية والعربية والفلسطينية باعتبارها أديبة وشاعرة لها قضية كافحت من أجلها طيلة حياتها ، ومن هذه الجوائز والأوسمة :

١ – جائزة رابطة الكتاب الأردنيين عام ١٩٨٣م .

٢ – جائزة سلطان العويس عام ١٩٨٧م .

٣ – جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري عام ١٩٩٤م .

٤ – جائزة ساليرنو للشعر من إيطاليا .

٥ – وسام فلسطين .

٦ – جائزة كافاتيس الدولية للشعر عام ١٩٩٦م .

كما حظيت فدوى طوقان باهتمام الباحثين والكتاب ، وصدرت حولها عدة كتب ودراسات أكاديمية "للماجستير والدكتوراة" في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، كما كتبت عنها دراسات متفرقة في الصحف والمجلات العربية، إلى جانب كتابات أخرى لكل

من إبراهيم المعلم، وخليل أبو أصبع، وبنت الشاطئ وروحية القليني، وهاني أبو غضيب، وعبير أبو زيد وغيرها . ونذكر من هذه الأعمال :

١ – كتاب (من إبراهيم طوقان إلى شقيقته فدوى) يكشف دور الشاعر إبراهيم طوقان في تثقيف أخته عبر الرسائل .

٢ – كتاب (رسائل إبراهيم طوقان إلى شقيقته فدوى) ، وصدر عن دار الهجر للنشر والتوزيع– بيت الشعر– في مدينة رام الله بفلسطين .

فدوى طوقان شاعرة :

تعرفت فدوى طوقان إلى عالم الشعر عن طريق أخيها الشاعر إبراهيم طوقان ، فهو الذي رعاها أدبياً ، وأخذ بيدها في طريق الشعر والأدب ، فأخذت تنشر قصائدها في الصحف المصرية والعراقية واللبنانية، وهو ما لفت إليها الأنظار في نهاية ثلاثينات القرن الماضي ومطلع الأربعينات . فلما توفي شقيقها إبراهيم عام ١٩٤١م ، وبعده توفي والدها عام ١٩٤٨م أخذت تشارك تدريجياً في الأنشطة السياسية في فترة الخمسينات رافضة الهزيمة داعية إلى الاستقلال والحرية . ثم سافرت فدوى طوقان إلى لندن في بداية الستينات والتحقت بالدراسة في جامعة أكسفورد ، وبقيت هناك عامين عادت بعدها إلى مدينتها نابلس ، وكان لهذا السفر أثر كبير في فكرها وشعرها على السواء ، وهو ما عبرت عنه في سيرة حياتها . وبعد نكسة ١٩٦٧م دخلت فدوى طوقان بكل قوة إلى الحياة السياسية ، وأخذت تشارك في الحياة العامة لأهالي مدينة نابلس تحت الاحتلال، بل وحاولت لعب دور الوسيط بين وزير الدفاع الاسرائيلي موشيه ديان والرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر.

كانت فدوى طوقان واحدة من دعاة التجديد العملي في الشعر العربي ، ولهذا رأيناها تتخلى عن الأساليب الكلاسيكية للقصيدة العربية دون أن تحدث فجوة أو خللاً لدى قرائها ، فحافظت على الوزن الموسيقي القديم والإيقاع الداخلي الحديث. ويتميز شعر فدوى طوقان بالمتانة اللغوية والسبك الجيّد، مع ميل للسردية والمباشرة مثلها مثل باقي شعراء المقاومة بشكل عام ، كما يتميز شعرها بالغنائية وبطاقة عاطفية تختلط فيها الشكوى بالمرارة والحزن وغياب الأعزة والأحباب .

لقد أغنت فدوى طوقان الشعر العربي بالشعر الرشيق الذي يعبر عن اكتشاف الأنثى لذاتها ، وكانت لها نشاطات على الصعيد العربي والعالمي، وعانت كثيراً منذ احتلال اليهود للأرض العربية الفلسطينية حتى إن كثيرا من قصائدها خرج إلى الوجود من خلال هذه المعاناة. وكانت تقول: إنها مازالت تشعر بالمهانة والإذلال كلما رأت الأراضي العربية تدنس بأقدام اليهود. هذا وقد كانت محاور شعر فدوى طوقان في الغالب كما يلي :

١ – حزنها على فقدها لأخيها إبراهيم طوقان الذي كان بمثابة معلمها الأول ، وقد أهدت فدوى طوقان أغلب دواوينها إلى روح إبراهيم ، جنباً إلى جنب مع كتابها عنه بعنوان " أخي إبراهيم " والذي صدر سنة ١٩٤٦م ، بالإضافة إلى القصائد العديدة التي رثته فيها خاصة في ديوانها الأول "وحدي مع الأيام" .

٢ – قضية فلسطين : فقد تأثرت فدوى طوقان باحتلال فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨م وزاد تأثرها بعد احتلال مدينتها نابلس خلال حرب ١٩٦٧م ، فذاقت طعم الاحتلال والظلم والقهر وانعدام الحرية .

٣ – تجربتها الأنثوية ، بمعنى أنها ركزت في قصائدها على الفتاة التي تعيش في مجتمع تحكمه التقاليد والعادات الظالمة ، وقد عاشت هي كل هذا ، ولذلك دعت في كثير من قصائدها إلى تحرر المرأة وإعطائها حقوقها واحترام مواهبها وإبداعاتها ، وهو ما جعلها محط احترام وتقدير الآخرين .

بدأت فدوى طوقان قرضها للشعر بالقصيدة التقليدية العمودية ، ثم تحولت بعدها إلى قصيدة التفعيلة باعتبار أنه يعطي للشاعر فسحة ومجالا أكثر. هذا ويمكن تقسيم شعر فدوى طوقان إلى ثلاث مراحل :

١ – المرحلة الأولى هي الشعر الرومانسي ، ونسجت فيها على منوال الشعر العمودي ، وتمثل ذلك في ديوان "وحدي مع الأيام : ١٩٥٢م" وديوان "وجدتها : ١٩٥٧م" ، ويتسم شعر فدوى طوقان في هذه المرحلة بالنزعة الرومانسية.

٢ – والمرحلة الثانية هي التي تحولت فيها من الشعر الرومانسي إلى الشعر الحر ، وفي هذه المرحلة اتسمت أشعارها بالرمزية والواقعية ، ويتمثل ذلك في ديوان "أمام الباب المغلق : ١٩٦٧م" وديوان "الليل والفرسان : ١٩٦٩م" . ومن أجمل قصائدها الرومانسية القصيدة التالية :

يا نخلتي يحبني اثنان

كلاهما كـــورد نيسان

كلاهما أحلى من السكر

وتاه قلبي الصغير بينهما

أيهما أحبه أكثر؟؟

أيهما يا نخلتي أجمل؟

قولي لقلبي ، إنه يجهل

في الرقصة الأولى

بين ظلال وهمس موسيقى

وشوشني الأول

وقال لي ما قال

رفّ جناحا قلبي المثقل بالوهم، بالأحلام، بالخيال

لم أدر ماذا أقول أو أفعل

في الرقصة الأخرى

حاصرني الثاني وطوقت خصري ذراعان

نهران من الشوق والحنان

وقال لي قال

رفّ جناحا قلبي المثقل

بالوهم، بالأحلام، بالخيال

واحيرتي! يحبني اثنان كلاهما كورد نيسان

كلاهما أحلى من السكر أيهما أحبه أكثر؟.

٣ – أما المرحلة الثالثة فهي التي هيمنت فيها موضوعات المقاومة على شعرها بعد سقوط بلدها في قبضة الاحتلال .

المقاومة في شعر فدوى طوقان :

سلطت الشاعرة فدوى طوقان الضوء من خلال أشعارها على الممارسات اللاإنسانية من قبل الاحتلال الإسرائيلي الغاصب ضد أبناء الشعب الفلسطيني العزّل ،

فتحدثت عن السجن والتعذيب وهدم البيوت بالجرافات والقتل والتصفية الجسدية والاغتيال والنفي وغيرها من الممارسات المغرقة في الظلم والعدوانية .

في قصيدة لها بعنوان " حمزة " تشير فدوى طوقان إلى هدم الإسرائيليين لبيوت الفلسطينيين من خلال حديثها عن حمزة الفلسطيني الذي هدم المحتلون بيته في صورة من صور المقاومة الشعرية، وقد أشارت فدوى طوقان إلى هذه الواقعة في كتابها " الرحلة الأصعب " قائلة : " لم يكن بيت حمزة أول بيت فجره ديناميت جيش الاحتلال، ولن يكون بالتأكيد آخر بيت، ما أكثر أصحاب البيوت الذين مروا بتجربة حمزة " (٨) ، وحمزة هذا ابن عمها، وهدم المحتلون بيته واعتقلوا ابنه، لكن فدوى طوقان تجعل من حمزة هذا رمزاً يمثل الفلسطينيين بعامة . ويظهر هذا منذ بداية القصيدة، فحمزة واحد من البلد كالآخرين يعتاش ويكدح بيديه كبقية الناس البسطاء، ويبدو حمزة صامداً متحدياً يشجع ابنة عمه على الصمود واصفاً الأرض بالمرأة، ففيهما سر واحد هو الخصب والعطاء. تقول فدوى في القصيدة:

(١)

كان حمزه

واحداً من بلدتي كالآخرين

طيّباً يأكل خبزه

بيد الكدح كقومي البسطاء الطيبين

* * *

قال لي حين التقينا ذات يومٍ

وأنا أخبط في تيه الهزيمه:

اصمدي، لا تضعفي يا ابنة عمي

هذه الأرض التي تحصدها –

نار الجريمه

والتي تنكمش اليوم بحزنٍ وسكوتْ

هذه الأرض سيبقى

قلبها المغدور حياً لا يموت

* * *

هذه الأرض امرأة
في الأخاديد وفي الأرحام –
سر الخصبِ واحد
قوّةُ السرِّ التي تُنبتُ نخلاً –
وسنابل
تُنبتُ الشعب المقاتل

* * *

دارت الأيام لم ألتق فيها –
بابن عمّي
غير أنّي كنتُ أدري
أنّ بطن الأرض تعلو وتميد
بمخاضٍ وبميلادٍ جديد

(٢)

كانت الخمسة والستُّون عام
صخرةً صمّاءَ تستوطن ظهره
حين ألقى حاكمُ البلدة أمره:
"انسفوا الدار وشدّوا
إبنه في غرفة التعذيب !" ألقى
ثم قام
يتغنّى بمعاني الحبِّ والأمنِ –
وإحلال السلام !

* * *

طوّق الجندُ حواشي الدار –
والأفعى تلوّتْ
وأتمّت ببراعة

اكتمال الدائرة

وتعالت طرقات آمرة :

"اتركوا الدار" ! وجادوا بعطاءِ

ساعةٍ أو بعض ساعة

* * *

فتح الشرفات حمزة

تحت عين الجند للشمس وكبّر

ثم نادى:

"يا فلسطين اطمئني

أنا والدار وأولادي قرابين خلاصك

نحن من أجلك نحيا ونموت"

وسرت في عصب البلدة هزّة

حينما ردَّ الدى صرخة حمزة

وطوى الدارَ خشوعٌ وسكوت

* * *

ساعةٌ، وارتفعت ثم هوت

غرُ الدار الشهيدة

وانحنى فيها ركام الحجرات

يحضنّ الأحلام والدفء الذي كان – ويطوي

في ثناياه حصاد العمر، ذكرى

سنوات

عُمِّر بالكدح، بالأصرار؛ بالدمعِ –

بضحكاتٍ سعيدة

.....

أمس أبصرتُ ابنَ عمي في الطريق

يدفعُ الخطو على الدرب بعزمٍ ويقين !

لم يزل حمزة مرفوعَ الجبين....

.....

كان حمزة

واحداً من بلدتي كالآخرين

طيباً يأكل الخبز

بيد الكدح كقومي البسطاء الطيبين (٩) .

**** ****

وفي ملحمتها "نداء الأرض" تصور فدوى طوقان شيخاً فلسطينياً في لحظة التساؤل المرير عن المصير الذي آل إليه حاله وحال شعبه:

أتغصب أرضي؟

أيسلب حقي

وأبقى أنا حليف التشرد؟

أصبحت ذلة عاري هنا

أأبقى هنا لأموت غريباً بأرض غريبة

أأبقى ؟ ومن قالها؟ سأعود لأرضي الحبيبة

سأفي بنفسي هذه الرواية

فلا بد ، لا بد من عودتي

كان بعينه يرسب شيء

ثقيل كآلامه مظلم

لقد كان يرسب سبع سنين

انتظار طواها بصبر ذليل

تخدره عصبة المجرمين

وترقد تحت حلم ثقيل

أهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها

يعانق أشجارها ويضم لآلىء حصاها

ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خداً وفم

وألقى على حضنها كل ثقل سنين الألم
وهزته أنفاسها وهي ترتعش رعشة حب
وأصغى إلى قلبها وهو يهمس همسة عتب
رجعت إليّ !
وكانت عيون العدو اللئيم على خطوتين
رمته بنظرة حقد ونقمة
كما يرشق المتوحش سهمه
ومزق جوف السكوت المهيب صدى طلقتين.

**** ****

ومن قصائدها التي أشارت فيها إلى أسلوب الاحتلال في اغتيال المناضلين الفلسطينيين قصيدة "إلى المغرد السجين " التي أهدتها إلى لشاعر الفلسطيني كمال ناصر الذي اغتاله الإسرائيليون في لبنان عام ١٩٧٣م أيام كان معتقلاً في الضفة الغربية في الخمسينات". تبدأ فدوى طوقان القصيدة ببيتين من الشعر العمودي التقليدي فتقول :

شدوك يأتينا حبيب الصدى
محلقاً رغم انغلاق الرحاب
يا طائري السجين فاصدح لنا
من خلف جدران الدجى والعذاب

وتمضي فدوى في قصيدتها متحدثة عن الإحساس بالظلم والرغبة في الحرية فتقول:

إذا أنت طلق الخطو طلق الجناح
أيام كانت ظلة الياسمين
تحضننا وأنت تشدو لنا
شعر المنى والزهو والعنفوان
فتقرب النجوم من أرضنا
تصغي إلى اللحن ونصغي

ثم تختتم الشاعرة القصيدة مبشّـــرة بالحرية والأمل برغم كل ما يحيط بنا من الظلام :

يا طائري هناك درب الرجاء

هناك يمتد درب الرجاء

رغم انطباق الليل من حولنا

*** ****

وفي قصيدة لها بعنوان " حرية شعب " من ديوان " الليل والفرسان : ١٩٦٩م " تعلن فدوى طوقان بوضوح مطالبتها بالحرية لكل الفلسطينيين ، وأنها لا ترضى عن هذه الحرية بديلاً :

حريتي.. حريتي.. حريتي

صوت أردده بملء فم الغضب

تحت الرصاص وفي اللهب

*** ***

والضفتان ترددان: حريتي!

ومعابر الريح الغضوب

والرعد والإعصار والأمطار في وطني

ترددها معي!

حريتي حريتي حريتي

*** ***

في الأرض في الجدران في الأبواب في شرف المنازل

في هيكل العذراء في المحراب في طرق المزارع

في السجن في زنزانة التعذيب في عود المشانق

*** ***

والضفتان ترددان: حريتي

ومعابر الريح الغضون

والرعد والإعصار والأمطار في وطني

ترددها معي

حريتي

حريتي

حريق

***** *****

وفي قصيدة لها بعنوان "جريمة قتل في يوم ليس كالأيام" تشير فدوى طوقان إلى جرائم التصفية الجسدية التي دأب المحتلون على ارتكابها ضد الأبرياء صغاراً وكباراً ، فيطلق الرصاص على الطالبة " منتهى الحوراني " وهي ذاهبة إلى مدرستها تحمل كتبها ، ويكرر المشهد مع الطفلة " إيمان حجو " وغيرها دون رحمة أو مراعاة لأدنى العواطف الإنسانية :

بغرفتها دورها المتعبة

تلملم أوراقها المدرسية

حذار العدى يا بنية

فعين العدو تصيب

وما كذب الكلب، كان عدو الحياة يطاردها في المسير

ويُنشب في عنقها مخلبه

*** ***

وما قتلوا منتهى وما صلبوها

ولكنها صعدت منتهى

تعلق أقمار أفراحها في السماء الكبيرة

**** ****

وفي قصيدة لها بعنوان "شهداء الانتفاضة" من " تموز والشيء الآخر : ١٩٨٩م " تتحدث عن الشهداء الذين بذلوا دماءهم عن رضى وطيب خاطر من أجل حياة شعبهم وكرامة وطنهم :

رسموا الطريق إلى الحياة

رصفوه بالمرجان بالمهج الفتية بالعتيق

رفعوا القلوب على الأكف حجارة، جمراً، حريق

رجموا بها وحش الطريق

هذا "أوان الشد"

واشتدت وماتوا واقفين

متوهجين على الطريق

متألقين كما النجوم، مقبلين فم الحياة

*** ***

لقد استطاعت فدوى طوقان التعبير عن الهم العام الذي مرت به القضية الفلسطينية من خلال النص الشعري الذي قدمت فيه أبعاد الحياة بكل صورها تحت الاحتلال ، واستطاعت أن تصف وصدق ما يعانيه كل إنسان وقع تحت نير الاحتلال وعايش القهر والإذلال وذلك بأسلوب قوي مباشر مما تميز به كبار شعراء المقاومة الفلسطينية .

هوامش

١ - أمي حاولت التخلص مني في الشهور الأولى من حملها بـي، حاولـت وكـررت المحاولة ولكنها فشلت ، عشر مرات حملت أمي : خمسة بنين أعطت الى الحياة وخمس بنات ، ولكنها لم تحاول الإجهاض قط إلا حين جاء دوري . هذا ما كنت أسمعها ترويـه منذ صغري. كانت مرهقة متعبة من عمليات الحمل والولادة والرضاع ، فقد كانت تعطي كل عامين أو كل عامين ونصف العام مولوداً جديداً . يوم تزوجت كانت في الحادية عشر من عمرها ، ويوم وضعت ابنها البكر كانت لم تتم الخامسة عشرة بعد. واستمرت هـذه الأرض السخية - كأرض فلسطين - تعطي أبي غلتها من بنين وبنات بانتظام . أحمد - إبراهيم - بندر - فتايا - يوسف - رحمي .. كان هذا كافياً بالنسبة لأمي ، وآن لها ان تستريح، لكنها حملت بالرقم السابع على كره . وحين أرادت التخلص مـن هـذا الـرقم السابع ظل متشبثاً في رحمها تشبث الشجر بالأرض ، وكأنما يحمل في سر تكوينه روح الإصرار والتحدي المضاد. ولأول مرة في حياتهما الزوجية ينقطع أبي عن محادثة أمي لبضعة أيام . فقد أغضبته محاولة الإجهاض . كان المال والبنون بالنسبة له زينة الحياة الدنيا ، وكان يطمع بصبي خامس . لكنني خيبت أمله وتوقعه . أصبح لديـه الآن ثـلاث بنات مع البنين الأربعة ..وتبعني فيما بعد أديبة ثم نمر ثم حنان فاستكملنا العدد (عشرة). انظر السيرة الذاتية لفدوى طوقان " رحلة صعبة - رحلة جبلية " - فدوى طوقان - دار الشروق ١٩٩٩م .

٢ - أذكر كيف كان يشتد خفقان قلبي كلما تحدثت معي معلمتي المفضلة (سـت زهـرة العمد) والتي أحببتها كما أحب واحدة من أهلي في تلك الأيـام . كانـت جميلـة وجهـا وقواماً، وكانت أنيقة، شديدة الجاذبية. كنت أرنو بشغف كبير وهي تشرح الدرس وتفسر لنا قطعة القراءة، أو حين كانت تتلو علينا قطعة الإملاء .... وكانت تقف أمـام مقعـدي الدراسي في الصف الأول الذي كان مخصصاً لأصغر تلميذات الصف سناً وحجماً . وحين كانت تضع أصابع يدها البيضاء على طرف مكتبي كنت أحس برغبتي في لثمهـا، فـاذا انحنت نحوي لتنظر في دفتري اخترقت أحاسيسي رائحة عطر خفيفة كانت تنبعث دائمـاً منها، وأتمنى لو بقيت بجانبي الى الأبد . فجأة انقطعت عن المجيء الى المدرسة، فقـد مرضت المعلمة المحبوبة. طال مرضها وطال غيابها، وعرفت الوحشـة وذقـت مـرارة غياب الأحباب وثقل الانتظار... كانت شقيقتها الكبرى معلمـة الصـف التمهيـدي فـي

المدرسة. وذهبت اليها برفقة بعض زميلاتي نستأذنها في زيارة ست زهـرة . ودخلنـا البيت الصامت بتهيب ونحن نكتم أنفاسنا . وفي غرفتها تربعنا على مقعد أرضـي أمـام سريرها . أخذت تمسح وجوهنا بعينيها الواهنتين وجهاً وجهاً . وحين صافحت عيناهـا وجهي ابتسمت لي . شعرت بقلبي يذوب حزناً . كنت منذ دخلنا أغالب البكاء في حلقي ، أما الآن فقد غلبت على أمري ، وأسرعت فواريت وجهي خلف زميلاتي ورحـت أبكـي بصمت . (رحلة صعبة – رحلة جبلية) .

٣ – كان غلاماً في السادسة عشرة من العمر . ولم تتعد الحكاية حدود المتابعة اليومية في ذهابي وإيابي . فما كان لمثلي أن تزوغ يميناً أو شمالاً . كانت الطاعـة مـن أبـرز صفاتي . وكنت مسكونة دائماً بالخوف من أهلي . كان التواصل الوحيد الذي جرى لـي مع الغلام هو زهرة فل ركض إلي بها ذات يوم صبي صغير في (حارة العقبة) وأنا فـي طريقي الى بيت خالتي. ثم حلت اللعنة التي تضع النهاية لكل الأشياء الجميلـة . كـان هناك من يراقب المتابعة ، فوشى بالامر لأخي يوسف ، ودخل يوسـف علـي كزوبعـة هائجة :"(قولي الصدق)..وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطـب بهـا الآخرين ، العنف والضرب بقبضتين حديديتين ، وكان يتمتع بقوة بدنيـة كبيـرة لفـرط ممارسته رياضة حمل الأثقال . أصدر حكمه القاضي بالإقامة الجبرية في البيت حتى يوم مماتي ، كما هددني بالقتل إذا أنا تخطيت عتبة المنزل ، وخرج من الدار لتأديب الغلام . (رحلة صعبة) . وانظر أيضاً لقاءاً صحفياً أجرته مع الشاعرة في أواخر أيامها جريدة (الزمان) – العدد ١٦٨٦ – نشر بتاريخ ٢٠٠٣/١٢/١٦م .

٤ – عاد أبي ذات صباح إلى البيت لبعض شأنه وكنت أساعد أمي في ترتيـب أسـرة النوم . وحين رآني سأل أمي: "لماذا لا تذهب البنت إلى المدرسة ؟" قالت : "تكثر في هذه الأيام القصص حول البنات فمن الأفضل وقد بلغت هذه السن أن تبقى في البيـت" . قـال أبي : "حسناً." وخرج!.كان أحياناً إذا أراد أن يبلغني أمراً يستعمل صيغة الغائب ولو كنت حاضرة بين عينيه . كان يقول لأمي : قولي للبنت تفعل كذا وكذا .. قولي للبنت إنها تكثر من شرب القهوة ، فلا أراها الا وهي تحتسي القهوة ليلاً ونهاراً . وهكـذا! . (رحلـة صعبة) .

٥ – أحياناً كنت أدخل المطبخ وأقف عند صفيحة (الكاز) وبيدي علبة الثقاب، لكني كنت أخاف الألم الجسماني ولا أطيق تحمله . وهكذا كنت أتصرف دون تنفيذ الأمر وأنا أفكـر بطريقة أخرى تكون أقل عنفاً من الاحتراق بالنار. كثيراً ما خطر لي تناول السم . ولكـن

من يأتيني به ؟ هذا بالاضافة إلى كونه يسبب آلاماً شديدة قبل الموت . وكان هذا كافياً لتحويل ذهني عنه. كان الانتحار هو الشيء الوحيد الذي يمكنني ان أمارس من خلاله حريتي الشخصية المستلبة . كنت أريد التعبير عن تمردي عليهم بالانتحار .. الانتحار هو الوسيلة الوحيدة ، هو إمكانيتي الوحيدة للانتقام من ظلم الأهل . لن يستطيع يوسف أو غيره من أفراد الأسرة أن يصدر على حكماً بالحياة ... سأتركهم مبلبلين متعذبين ، نادمين . (رحلة صعبة) .

٦ – في تموز– يوليو ١٩٢٩ عاد أخي إبراهيم من بيروت يحمل شهادته من الجامعة الامريكية ببيروت ليمارس مهنة التعليم في (مدرسة النجاح الوطنية). مع وجه إبراهيم أشرق وجه الله في حياتي . كانت عاطفة حبي له قد تكونت من تجمع عدة انفعالات طفولية سعيدة كان هو مسببها وباعثها . أول هدية تلقيتها في صغري كانت منه.أول سفر من أسفار حياتي كان برفقته . كان هو الوحيد الذي ملأ الفراغ النفسي الذي عانيته بعد فقدان عمي ، والطفولة التي كانت تبحث عن أب آخر يحتضنها بصورة أفضل وأجمل . وجدت الأب الضائع مع الهدية الأولى والقبلة الأولى التي رافقتها .إن تلك الهدية بالذات ، والتي كان قد أحضرها الي من القدس أيام كان تلميذاً في مدرسة المطران، تلك الهدية التي كانت أول أسباب تعلقي بإبراهيم ذلك التعلق الذي راح يتكثف فيما بعد بصورة قوية. كان تعامله معي يعطيني انطباعاً بأنه معني بإسعادي وإشاعة الفرح في قلبي ، لا سيما حين كان يصطحبني في مشاويره إلى الجانب الغربي من سفح جبل عيبال .(رحلة صعبة) .

٧– قالت أختي (فتايا) لأبي وهي تظن أنها تزف بشرى مثيرة : هل تعلم أن إبراهيم شرع يعلم فدوى نظم الشعر ؟ أشاح أبي بيده وواصل شرب القهوة المرة . كانت حركة يده حين أشاح بها تحمل كل معاني الاستخفاف والاستهانة. انكمش قلبي مع حركة يده وتقلص . إنه لا يؤمن أنني أصلح لشيء– قلت هذا بيني وبين نفسي – إنه لا يحمل لي سوى شعور اللا إكتراث، كأنني لا شيء، كأنني عدم وفراغ ، كأنني لا لزوم لوجودي اطلاقاً. وازدادت الفجوة النفسية بيني وبين أبي عمقاً واتساعاً. (رحلة صعبة) .

٨ – فدوى طوقان – الرحلة الأصعب : الجزء الثاني من السيرة الذاتية – الفصل السابع عشر – صفحة ١١٣–١١٤ .

٩ – فدوى طوقان – الليل والفرسان .

مصادر ومراجع :

١ – فدوى طوقان – " رحلة صعبة – رحلة جبلية " – دار الشروق ١٩٩٣م .

٢ – فدوى طوقان – " الرحلة الأصعب – دار الشروق – الأردن ١٩٩٩م.

٣ – فدوى طوقان – وحدي مع الأيام ، وصدر عام ١٩٥٢م .

٤ – فدوى طوقان – وجدتها ، وصدر عام ١٩٥٧م .

٥ – فدوى طوقان – أعطنا حبا ، وصدر عام ١٩٦٠م .

٦ – فدوى طوقان – أمام الباب المغلق ، وصدر عام ١٩٦٧م .

٧ – فدوى طوقان – الليل والفرسان ، وصدر عام ١٩٦٩م .

٨ – فدوى طوقان – على قمة الدنيا وحيداً ، وصدر عام ١٩٧٣م .

٩ – فدوى طوقان – تموز والشيء الآخر ، وصدر عام ١٩٨٩م .

١٠ – فدوى طوقان – اللحن الأخير ، وصدر عام ٢٠٠٠م .

١١ – فدوى طوقان – أخي إبراهيم ، وصدر عام ١٩٤٦م .

١٢ – جريدة (الزمان) – العدد ١٦٨٦ – نشر بتاريخ ٢٠٠٣/١٢/١٦م .